ملامح الحضارة المصرية في شعر العصر المملوكي

د. منال محرم عبد المجيد حسن

مدرس الأدب العربى

بكلية الآداب جامعة عين شمس

أشار العلامة ابن خلدون في مقدمته إلى أن مصر قد بلغت في العصر المملوكي مبلغاً عظيمًا من التحضر والعمران، مما جعله يعزو كل تقدم إلى كون "عمرانها مستبحرًا وحضارتها مستحكمة منذ آلاف السنين"(١).

كما أكد فكرته تلك حين وصفها بأنها؛ "حاضرة الدنيا وبستان العالم ومحشر الأمم، ومدرج الذّر من البشر، وإيوان الإسلام، وكرسي الملك، تلوح القصور والأواوين في جوّه، وتزدهر الخوانك والمدارس بآفاقه، وتضيء البدور والكواكب من عليائه، قد مثل بشاطئ بحر النيل نهر الجنة، (٢)، وقد ظهرت هذه الفكرة فى رحلة ابن بطوطة حين أدرج أبياتاً فى وصف النيل وشاطئه لناصر الدين بن ناهض جاء فيها:

شاطئ مصر جنةُ ... ما مثلها من بلد

لا سيما مذ زخرفت ... بنيلها المطَّرد

وللرياح فوقه ... سوابغُ من زرد

سائلة ما هواءها ... برعد عارى الجسد

والفلك كالأفلاك ... بين حادر ومصعد (٣)

ومن الطبيعى أن نذهب إلى أن الشعر بوصفه أحد أشكال الأدب قد تأثر وانفعل بالحضارة وأشكالها المتعددة، وكان " من السخاء والسماحة والكرم والعطاء بحيث فتح قلبه لكل من اتصل بتلك الحضارة بوشيجة من الوشائج أو صلة من الصلات" (٤).

ولما كان الأمر كذلك فقد انعكست في أشعار العصر المملوكي مناحي تلك الحضارة، وباتت القصائد التي وصلتنا أكبر شاهد على فكرة توغل الحضارة بكافة أشكالها في شتى جوانب المجتمع.

مما سبق نستطيع أن نرصد لمختلف أشكال الحضارة كما انعكست في شعر تلك الفترة الغنية في حياة الأدب المصري. وقد دار اهتمامنا في هذا البحث حول تقديم رصد وتغطية لما تردد في أشعار الشعراء من مظاهر الحضارة والعمران في مصر المملوكية.

وكما رصدنا مناحي الحضارة فقد جمعنا دعائم الثقافة فيها وانعكاسها أيضًا في الشعر، ولم نغفل أثناء ذلك أن نوضح مدى حب الشعراء لمصر وتعلقهم بها وكيف عبروا عن ذلك وتغنّوا به في قصائدهم. ولم نغفل أثناء بحثنا هذا أياً من مظاهر الحضارة التى تدفقت عبر قنوات ثلاث هى:

" ١- دائرة النشاط الثقافى: وهو الذى يتضمن الجانب العقدى والفكرى والروحى للحضارة، ويلعب دوره الحاسم فى منحها سماتها الخاصة، وشخصيتها المستقلة.

٢- دائرة النشاط الاقتصادى والعمرانى والتقنى، وهو الذى يتضمن الجانب المادى للحضارة والذى يصطلح عليه أحياناً بالمدنية.

٣- دائرة النشاط الإدارى: ويتضمن الجانب الفنى ويتمثل فى النظم والمؤسسات السياسية والإدارية والتعليمية والقضائية والاجتماعية.....التى تحدد العلاقات بين التيارين السابقين ضمن حلقات الحضارة الواحدة [٥]."

وقد اقترنت الحضارة بفكرة التطور المصاحب لرفاهة العيش، ويتمثل هذا التطور في عدة مظاهر تظهر المجتمع فتجعله موسوماً بالتحضر والتقدم.

والتحضر قرين التقدم، والشعوب ذات الحضارات هي الشعوب الأكثر تقدمًا ورسوخًا واستمرارًا على مدار التاريخ، كذلك كان للحضارة أهميتها في حياة الإنسان منذ القدم، وهي التي حوّلته من بدائي إلى متمدن ومنه إلى متحضّر. ولما كان الأمر كذلك وجب علينا تتبع معنى الحضارة ومدى تطوره وتأثيره في المجتمع المصري آنذاك.

وإذا كان الإنسان بوجه عام يميل بطبعه إلى التقدم والترقي والتحضر، فإن الشعب المصري – على وجه الخصوص – كان دائم التغيّر والتطور. وقد خضع المجتمع المصري عبر عصوره الإسلامية إلى كثير من أسباب التحضُّر التي وصلت إلى أقصى ذروتها في العصر المملوكي.

إن مَنْ يتتبع مفهوم الحضارة ليتأكد من حقيقة أن الشعب المصري في العصر المملوكي قد تأثر – بكل طبقاته – بفكرة الحضارة والترقي حتى ظهر ذلك في أشعاره التي رسمت صورة لمعالم الحضارة المميزة له.

ولن يفهم تاريخ الأمة بكل ما فيها فهمًا صحيحًا إذا لم يعرف شيئًا عن حضارتها، ومدى ما وصلت إليه من علو أو انحدار. فهذا المبحث الهام يحقق أهدافًا نرمي جميعًا إليها، ألا وهي ربط الرقي الذي تصل إليه الأمة بمدى ما وصلت إليه من نمو حضاري شمل جميع المجالات، ولعل أهمها بالنسبة لدارسي الثقافة – مدى ما وصلت إليه من تقدم في مناحي الثقافة والأدب والفنون والعلوم.

وبالرغم من اتساع مفهوم الثقافة إلاّ أن مفهوم الحضارة أعمّ وأشمل، ذلك أن الأخيرة من الرحابة بحيث تشمل كل مظاهر التقدم الصناعي مثل الصناعة والآلات والزراعة والتجارة إلى غير ذلك من مظاهر التقدم المادي،

إلى جانب ما تشمله الثقافة من جوانب روحية ومعرفية، ولذلك نستطيع أن نذهب إلى التكامل المرجو دائماً بين الحضارة والثقافة والذى يمكن من خلاله أن نصف أمة ما بأنها متحضرة. وهناك من يجمع بين اللفظين فيجعل الحضارة إذا مالت للمادية أصبحت بمعنى المدنية، أما إذا مالت إلى الروحية صارت بمعنى الثقافة، ومنهم من يكتفى بمصطلح الحضارة ويعرفها بأنها " التقدم الروحى والمادى للأفراد والجماهير على حد سواء [٦].

وحول الفكرة نفسها نجد تعريفا للحضارة بأنها:"تراث الأمة على وجه الخصوص الذى به تتميز عن غيرها"[٧]. وقد اعتمدت الدولة المملوكية على التزام النظام فى إدارة كافة شئونها الداخلية والخارجية، ومن ذلك ما ذكره المؤرخون "عن دار العدل التى كانوا يجتمعون فيها لمناقشة أمور الدولة، ولحل خصومات الأفراد. كما قامت الشرطة بدور فعال لردع محاولات الفوضى والخروج على النظام، وكانت تفرض عقوبات على ذلك.

كما اعتمد المماليك على جيش قوى، ومخزون وافر من الأسلحة الخفيفة والثقيلة مما اكسبها قوة بين سائر الأمصار، وأكد على ذلك انتصارها على التتار " ولهذا لا نجد ذكراً لفتى من فتيان الأتراك فى الأدب العربى فى تلك العصور، إلا ويقترن وصف محاسنه بذكر سلاحه كقول ابن نباته فى غلام تركى يرمى بقوس:

فديتك أيها الرامى بقوس ولحظ يا ضنى جسدى إليه
لقوسك نحو حاجبك انجذاب وشبه الشيء منجذب إليه [٨]

هذا وقد تقدمت الصناعات الكبرى فى عهد المماليك مثل صناعة السفن البحرية والحربية، وصناعة النسيج والأصباغ، والجلود، والورق، والزجاج

والخزف.... كما وصلت العمارة فى هذا العصر إلى ذروة تقدمها فوجدنا الإبداع والبراعة فى فنية البناء والزخارف مثل المساجد والقصور والعمارات والفنادق والبيمارستانات. كما وصلت الحالة الاقتصادية المنتعشة إلى كثرة ملفتة من الأسواق والحرف والمهن، مما جعل مصر فى ذلك العصر أشبه بقلعة تجارية، أو مركزا عالميا للتجارة.

ولما كان عصر ابن خلدون "عصرًا تحررت فكرة التاريخ فيه من الاعتماد على المنقول وتعلقت بآفاق من التعدد الثقافي في الحضارة الإنسانية، والتحليل العقلي للمادة التاريخية" (٩). فإنه من الطبيعي أن يتنبه عالم مثله إلى استقصاء بعض عوامل تشكيل مصر في عهد المماليك مركزًا حضاريًّا وإشعاعًا ثقافيًّا أفادت منه الأمم المجاورة وكذلك البعيدة.

ومن تلك العوامل ما ذكره عن غنى القاهرة في عهد المماليك قائلاً: "ويبلغنا لهذا العهد عن أحوال القاهرة ومصر من الترف والغنى في عوائدهم ما يقضي منه العجب، حتى أن كثيرًا من الفقراء بالمغرب ينزعون إلى النُّقلة إلى مصر لذلك، لما يبلغهم من شأن الرفَّه بمصر أعظم من غيرها، ويعتقد العامة من الناس أن ذلك لزيادة إيثار أهل تلك الآفاق على غيرهم وأموال مختزنة لديهم، وأنهم أكثر صدقة وإيثارًا من جميع أهل الأمصار. وليس كذلك فقط وإنما هو لما تعرف من أن عمران مصر والقاهرة أكثر من عمران هذه الأمصار التي لديك، فعظمت لذلك أحوالهم"(١٠).

ولما كانت مصر تتمتع بهذه المكانة من قوة وسيادة على العالم الإسلامي، إلى جانب ما تمتع به مجتمعها من رفاهية وتقدم علمي وثقافي وعمراني واضح المعالم، كان حريًّا بالشعراء سواء الوافدين أو المصريين – أن يتملك عليهم حبها والشوق والحنين الدائم إلى حضارتها الشامخة من أمثلة

هذا وصف ابن نباته ت: ٧٥٠هـ لهذا الحنين قائلاً:

قسمًا ما حُلت عن عهد الوفاء بعد مصر لا ولا نيل بكائي
حبها تحتي وفوقي ويميني وشمالي وأمامي وورائي[١١]

وفي موضع آخر يقول:

فما مصر إلا جنة ساكنٍ ندى رزقه يأتى بغير حساب[١٢]

وفي موضع ثالث يقول:

يا سارى البرق في آفاق مصر لقد أذكرتني من زمان النيل ما عَذُبَا
حدِّث البحر أو عنِّي ولا حرجٌ وانقل عن النار أو قلبي ولا كذبا
واندب على الهرم الغربي لي عُمرًا فحبذًا هرمًا فارقته وصبا[١٣].

هذا وقد عبر الشاعر المخضرم بين دولتي الأيوبيين والترك البهاء زهير – صاحب المدرسة المصرية فى الشعر – عن حبه لمصر قائلاً:

ولم أر مصرًا مثل مصر تروقني ولا مثل ما فيها من العيش والخفض
وبعد بلادي فالبلاد جميعها سواءٌ فلا أختر بعضًا على بعض[١٤]

وحول المعنى نفسه يقول في موضع آخر:

بلاد متى جئتها جئت جنةً لعينيك منها كلما شئت رضوانا
تمثل لي الأشواق أنّ ترابها وحصباءها مسك يفوح وعقيانا
فيا ساكني تراكم علمتمو بأنى مالي عنكمو الدهر سلوانا
وما في فؤادي موضع لسواكم ومن أين فيه وهو بالشوق ملآنا ؟

ولم يقف الحنين إلى مصر عند هذا الحد، وإنما تجاوزه إلى طبقة العلماء والفقهاء والقضاة، وقد كان حب الوطن متمكّنًا من قلوب المصريين جميعًا،

ومن هؤلاء الشاعر صلاح الدين الصفدي إذ قال:

كيف صبري عن أرض مصر وفيها ... لي قومٌ أسمى الأنام وأسمح
لو تعاطى الجبال كأس حديثٍ ... عنهم مال عِطْفُها وترنّح

وكذلك يقول الورّاق عن سكنه بالروضة:

يا ساكن الروضة أنت المُشتهى ... من هذه الدنيا وأنت المرتضى
ويا سرور النفس بينِ الشُّعَرا ... أنت الرَّضي فيهم والمرتضى

كما قال ابن سعيد المغربي عن مصر وأهلها حين زارها في القرن السابع الهجري:

أسكّان مصر جاور النيل أرضكم ... فأكسبكم تلك الحلاوة في الشّعر
وكان تبلك الأرض سحُر وما بقى ... سوى أثرٌ يبدو على النظم والنثر

وقد أجاد الجزار في وصف حبه للأسكندرية قائلاً:

حللتُ بظاهر منها كأنّني ... حللتُ هناك جَنَّاتِ الخلود

وقد قال علاء الدين الوداعى (علي بن المظفر) في حب مصر والحنين إليها.

بمصر وسكّانها جدّد شوقي ... وجدّد عهديَ الخالي
وصِف لي القُرط ومشنِّف به ... سمعي وما العاطل كالحالي

وكذلك قال إبراهيم المعمار في حب مصر:

ما مصرَ إلاَّ منزلٌ مُستحسنٌ ... فاستوطنوه مشرقًا أو مغربًا
هذا وإن كنتم على سفرٍ به ... فتيمّموا صعيدًا طيبًا

وللقاضي شهاب الدين بن فضل (الله) العمري:

ما مثل مصر في زمان ربيعها لصفاء ماء واعتدال نسيم
أقسمت ما تحوي البلادُ نظيرَها لمَّا نظرتُ إلى جمال وسيم

وله أيضًا:

لمصر فضل باهر لعيشها الرغد النَضِر
في كل سفح يلتقي ماء الحياة والخَضِر

وقال وقد بالغ في المدح:

لعمرك ما مصر بمصر وإنما هي الجنة العليا لمن يتفكر
فأولادها الولدان من نسل آدم وروضتها الفردوس والنيل وكوثر

وقد شكل التقدم الذي واكب استقرار البلاد في تلك الحقبة تيارات متعددة من الحضارة، إذا نرى المظاهر الحضارية في مصر المملوكية قد كثرت وانتشرت وازدهرت في الاقتصاد بمجالاته الثلاثة (الصناعة والتجارة والزراعة)، وكذلك انعكس الرخاء على المظهر والملابس والمنازل وحتى على أنواع الأطعمة وكثرتها، وأعداد الأسواق وتنوعها. هذا إلى جانب أن الاستقرار السياسي والاقتصادي قد ولّد من ضروب التسلية وقضاء الوقت باللهو أو الصيد أو ما شابه ذلك مما سوف نعرض بالتفصيل.

فى بداية القول يجب أن نشير إلى الشكل العام المكوّن لطبقات الشعب في مصر في عصر المماليك، نقول إن سكان البلاد في تلك الفترة كانوا مزيجًا من المماليك والتتار والأكراد وكذلك الأتراك، وكثيرًا ما كانت تحدث زيجات وأصهار تولّد جنسًا جديدًا كتلك التي كانت تحدث بين الأتراك والتتار "وقد اتصف أبناء التتار بالجمال النادر، مما كان سببًا في تنافس أمراء الدولة

على التزوج من بناتهم فتكاثر نسلهم في القاهرة، وصار أهل الحسينية يوصفون بالحسن والجمال(١٥).

وقد عبر الشعراء عن هذا الجمال في أشعار كثيرة منها ما يمدح الجمال التركي الذي غلب على الجمال المصري في تلك الفترة، حتى أن الشعراء فتنوا بالمرأة التركية وصوروا هذا الجمال في كثير من غزلياتهم، من ذلك نرى تغزل الشعراء بالأعين الضيقة، وهو شيء جديد على مقاييس الجمال العربي، من ذلك قول سيف الدين المشد:

أوقع القلب في أشد الوثاق ضَيِّقَ العين ضَيِّقَ الأحداق(١٦)

كما افتن ابن نباتة، الشاعر المعروف بمصريته، بالعيون الضيقة فقال:

قام يرنو بمقلة كحلاء علمتني الجنون بالسوداء
وحبيب إليّ يفعل بالقل ب فعال الأعداء بالأعداء
ضيق العين إن رنا واستمحنا وعناء تسمّح البخلاء (١٧)

كذلك قال ابن سودون:

أقمار حسن من الأتراك لا ذوا بى إن رمت يا نفس تخليصًا فلا ذوبي(١٨)

وكذلك قال الشاعر عبد الله بن عبد الواحد:

بى من بنى الأتراك ظبى ساحر الحدق شقيق خديه يحكي حمرة الشفق

هذا وقد وصلت مصر إلى مكانة عالية في فترة حكم المماليك، ذلك أنها شكلّت قلبًا للعالم العربي والإسلامي وتمتعت بمكانة مرموقة وقوة لا يستهان بها وسط جيرانها. وقد أكد الأعشى على أن تلك الفترة كانت من أهم فترات العصر المملوكي لما تميزت به من ازدهار وإعادة ترتيب النظامين الإداري والمالي في الدولة.

ولعل أول ما يلفت النظر ذلك النظام الدبلوماسي – إن صحّ التعبير – الذي وضعه حُكّام المماليك سواء في سياستهم الداخلية أو علاقاتهم الخارجية، إذ نرى ألواناً من البروتوكولات في أنظمة المواكب والمظاهر الحياتية في البيوت السلطانية، كما نجد أنظمة متبعة وقواعد لا يمكن الخروج عنها في العلاقات المتبادلة بين سفراء المماليك وسفراء الممالك الأخرى وكانت تلك العلاقات على أعلى مستوى من النظام الحضاري المتقدم.

هذا وقد لحق النظام كل خطوات السلطان، وكان أهمها يتمثل في المواكب التي كثرت مناسباتها في العصر المملوكي، ومنها "موكب السلطنة والاحتفال بجبر الخليج، وصلاة الجمعة والعيدين، ولعب الكرة والخروج إلى سرياقوس، والسرحات أي الصيد الذي كان يخرج له السلطان سبع مرات في فصل الربيع [١٩].

وقد حفلت هذه المواكب بشتى مظاهر الروعة والإبهار كما حظيت باهتمام السلاطين وتمثل هذا الاهتمام في الاحتفاء بالزي السلطاني، والمنح والعطايا والهبات، والأسمطة المصاحبة والولائم إلى غير ذلك من ألوان الفخامة والعظمة، وقد وصف ابن كثير هيئة السلطان فى موكبه فقال:" عليه من أنواع الملابس: والأمراء مشاة بين يديه، والبسَط تحت قدمى فرسه، والبشائر تضرب خلفه."[٢٠]. كما روى عن الناصر محمد بن قلاوون " من أنه فى أثناء عودته إلى مقر ملكه بالقلعة، بعد رحلة قصيرة، كانت تفرش الأرض تحت قدميه بالبسط والمنسوجات الغالية لمسافة تبلغ أربعة آلاف ذراع، وفى طريقه إلى الحج كانت مائدته تزود فى جوف الصحراء بالخضر الطازجة من حديقة متنقلة، يحملها أربعون جملاً"[٢١]. "وقد كان السلطان ومن معه في الموكب يسيرون في الشوارع أمام أعين المصريين المندهشة

وهم في أبهة من الملابس والأزياء، في منظر جميل أخّاذ [٢٢]. ولا نعجب بعد هذا أن نجد الشعراء يعبّرون عن كل هذا الإبهار في الزى، مثلما قال ابن الصائغ عن الأمراء الذين يمشون في الموكب بأقبيتهم الملونة:

إن جُزت بالموكب يومًا فلا تسأل عن السيّارة الكُنّس
فثمّ آرام على ضَمر لله ما تفعل بالأنفس
بأحمر هذا وذا أصفر وأخضر هذا وذا سندس
فقل لذي الهيئة ياذا الذي ينقل ما ينقل عن هرمس
قولك هذا خطأ باطل أما ترى الأقمار في الأطلس[٢٣]

وقد أجمع المؤرخون على تلك الثروات الطائلة من الذهب والفضة والخيول والقصور إلى آخر مظاهر الأبهة والعظمة، ومن ثمّ الثراء الفادح.

ولا ينبغي ونحن نشير إلى هذا الرخاء الذي عمّ اقتصاد البلاد في تلك الفترة أن نستهين بهذا الجانب المؤثر في إقامة حضارة طويلة وراسخة مثل حضارة مصر في عهد المماليك، فهذا الجانب لا شك هو دعامة من دعائم الاستقرار الحضاري، وقد وجد من الشعراء من يمدح السلاطين على هذا الاستقرار مثلما مدح ابن نباته الناصر حسن قائلاً:

سلطانُ مصرَ الرخا والأمن عمّ فما لها سوى النيل قطّاع على السُبُل[٢٤]

كما وصف البوصيري ثروات بيت المال فقال:

ملأت فيها بيوت المال من ذهب وفضة صبرًا حبذا الصبر
والمال يُجنى كما تجنى الثمار بها حتى كأن بني الدنيا لها شجر
وتابعت بعضها الغلات في سفر بعضًا إلى شون ضاقت به الخدر
وسيقت الخيل للأبواب مسرجة لم تُحص عدّاً وتُحصى الأنجم الزهر[٢٥]

وقد انعكست المظاهر الحضارية المادية المتعلقة بالغنى والترف،

فوجدنا على سبيل المثال تنوعاً هائلاً فى الأزياء والملابس المبهجة والزينة والألوان الباهية، وتعدد كبير فى أشكالها ومنها وصف الشاعر شمس الدين محمد بن إبراهيم لعمائر الأشراف، وكانت خضراء قائلاً:

أطراف تيجانٍ أتت من سندس خضر كأعلام على الأشراف
والأشرف السلطان خصهم بها شرفاً لنرفهم من الأطراف[٢٦].

كما وصف الجزار بعض أشكال الملابس الزاهية يلبسها رجلُ أسود أهداه السلطان إياها فقال:

غير خاف عنك الذى ناله الأسـ ـود بالأمس من ندى السلطان
وتمشيه بالعمامة والتوب ومنديل الكم والطيلسان
خلعة تخلع القلوب كما يخـ لع مرآة العقل عند العيان[٢٧]

ومن الماديات التى حظيت بالتصوير شعرا، وكان تنوعها نتاجاً أكيداً لثراء الدولة، ذلك الفيض الهائل من صنوف الأطعمة التى كثيرا ما وصفها الشعراء، وتحدثوا بخفة ظل عنها، مثال ذلك وصف الشاعر نور الدين ابن المشرق صنوفا من الأطعمة المصرية قال فيها:

أحن إلى الرز المفلفل بالتبل ويشتاق قلبى للبسائس بالعسل
وأرتاح إنْ هَبت ريح الشرائح وإن حضر اللحم السمين فلا تسل لى
وإن قدّموا نحوى خروفاً من الشوى ترى وقعتنى فيه ولا وقعة الحمل
وأعمل فى الكشكا إذا زاد دهنها ويافوز من حيا على خير ذاك العملّ [٢٨]

ولعل في غنى العلماء ما يشير إشارة مباشرة إلى اهتمام الحكام المماليك بالعلم والعلماء إلى الحدّ الذي لحقوا فيه بالأغنياء، وقد اشتهر كثير من سلاطين المماليك بحب العلم "فالأشرف قايتباي عرف عنه اشتغاله بالعلم

وكثرة مطالعة الكتب وله أذكار وأوراد جليلة تتلى في الجوامع"[٢٩]. هذا وقد وفد إلى مصر علماء كثيرون من المشرق والمغرب لأنها كانت قلعة وصرحًا للعلم والعلماء آنذاك.

ومن ثم يمكننا أن نقول إن وضع مصر العلمي في فترة حكم المماليك قد ازدهر، وارتفع قدر العلماء في تلك الفترة، وقد شجّع سلاطين المماليك مجالس العلم والادب حتى أصبح عصرهم زاهراً بالعلماء والأدباء، فازدان بكثير من أفذاذ الكُتّاب الذين ضربوا فى الأدب بسهم [٣٠]، حتى صارت مصر محورًا للنشاط العلمي، ومقصدًا لطلاب العلم من مختلف البلاد القريبة والبعيدة شرقًا وغربًا، ولعل أكبر دليل على ما نذهب إليه من علوٍ في مكانة مصر العلمية ذلك التراث الضخم الذي خلفته لنا تلك الفترة من حكم المماليك لمصر، إذ نجد مؤلفات علمية وموسوعات تاريخية ضخمة وسيرًا وكتبًا فلسفية عالية القيمة مازلنا نفيد منها حتى وقتنا الحالي، وفى هذا دليل على حضارة العصر المملوكى؛ إذ إن " الكتابة العربية ظاهرة حضارية إسلامية، وهى مع كونها ظاهرة حضارية كانت أيضاً ظاهرة إبداعية متمشية مع كُنة هذه الحضارة وجلالها وخلقها وإبداعها [٣١].

ولم يكن التراث العلمي المدوّن فقط هو الدليل على الاهتمام بالعلم والعلماء، ولكن تتبعنا أيضًا للمنشئات العلمية في تلك الفترة ليجعلنا نلاحظ ازديادًا كبيرًا وطفرات هائلة في بناء المدارس التعليمية والكتاتيب التي كان الهدف الأساسي منها تلقي العلم وإخراج طلاب علماء ولا مبالغة في قول القلقشندي أن سلاطين المماليك بدءًا من السلطان الظاهر بيبرس وحتى عهد السلطان الغوري قد اهتموا بالأبنية المدرسية وصاروا يبنون منها "ما ملأ الأخطاط وشحنها"[٣٢].

كما لفت هذا الأمر الرحّالة الذين زاروا مصر في تلك الفترة، حتى أن ابن بطوطة أشار إلى تلك الأعداد الهائلة من المدارس بقوله: لا يحيط أحدٌ بحصرها لكثرتها"[٣٣]. وقد ورد تفصيل لما عاصره السيوطى من مدارس فى كتابه حُسْن المحاضَرة [٣٤].

واتسمت العمارة في هذا العصر بالتقدم إذ اهتم سلاطين المماليك ببناء القصور والجسور والقناطر، كما اهتموا بإصلاح المنارات مثلما فعل الظاهر بيبرس في منارتي الإسكندرية ورشيد، ومن ثم وجدنا العمارة تشكّل فنًا معتنى به في تلك الفترة.

هذا وقد واكب الشعر الاحتفال بافتتاح أي بناء جديد، وخاصة المدارس، مثال ذلك ما قال الشاعر أبو الحسين الجزار عندما دُعي إلى حضور حفل افتتاح المدرسة الظاهرية التى بناها الظاهر بيبرس سنة ٦٦١ هـ:

ألا هكذا يبني المدارس مَنْ بنى ومن يتغالى في الثواب وفي الثنا
لقد ظهرت للظاهر الملك همةٌ بها اليوم في الدارين قد بلغ المُنا
تجمّع فيها كل حُسْنٍ مفرقٍ فراقت قُلوبًا للأنام وأعينا[٣٥]

كما أنشد السراج الورّاق شعرا حين أُفتتحت المدرسة الظاهرية المنسوبة للسلطان الملك الظاهر برقوق والتى تم بناؤها سنة ٧٨٨ هـ، ومن ذلك قوله:

وقد أنشأ الظاهر السلطان مدرسة فاقت على إرم مع سرعة العمل
يكفى الخليليّ إنْ جاءت لخدمته شمَّ الجبال لها تأتى على عجل [٣٦]

هذا وقد انتقل الثراء والغنى إلى المرأة أيضًا حتى وجدنا صورتها في الأشعار التي قيلت في تلك الفترة مشرقة متألقة أكثر زينتها من الحُلي

والذهب والأحجار الكريمة، وقد عبّر القيراطي عن حُليّ محبوبته التي ارتدتها فأخذت بها شكل الغصن المثمر من كثرتها قائلاً:

"قامت وقد لبست عقود حُليها فرأيت غصناً بالجواهر مثمرًا"(٣٧)

كما أشار ابن نباته بخفة روح مصرية ما لصاحبته من خواتم كثيرة وقلائد وأساور ترتديها فقال:

دعوني في حلٍّ من العيش مائسا ومرتقبا من بعده عفو راحم
أمدّ إلي ذات الأساور مقلتي فأسال للأعمال حُسن الخواتم(٣٨)

ولعل هذه الصورة الجميلة من الزينة والتجمّل تدل على وضع المرأة في هذا العصر عند أكثر الناس، وهو وضع فيه احترام ومحافظة وعناية "ولم يقتصر ذلك الاحترام للمرأة على نساء السلاطين وأمرائهم، فهناك من الشواهد ما يثبت احترام عامة الشعب المصري في عصر سلاطين المماليك لنسائهم"(٣٩).

أما وسائل اللهو والترفيه في العصر المملوكي فتمثلت فى الصيد، كما عُرف عن المماليك حبهم للرياضة مثل الرماية وركوب الخيل، إلا إن الصيد كان هو الرحلة الممتعة التي يقوم بها السلاطين والأمراء والأعوان بين الحين والآخر، "فهذا الصيد الذى عاش عليه الإنسان فى أول عهده أصبح فى زمن الحضارة الإسلامية رياضة ومتعة"(٤٠)، وكثيرًا ما كان الشعراء يصحبونهم ليعبروا عن تلك الرحلة الطريفة من ذلك قول السراج الورّاق عن رحلة صيد للملك الصالح علاء الدين:

عزمة الصحّ فألُها بالنجاح بين ذي مخلب وذات جناح
من فهود ومن صقور حداها يمنها في غدوها والرواح

أرسلتها سعادة الملك الصـ ـالح واستقبلت ووجوه الصلاح
ملك حنرج الثرى بدماء حملت رتكها خدود الملاح
كل يوم من صيد عيد نحر في وحوش وفي عدى الأضاحي[٤١]

وكان لصيد السلاطين مراسم ومواكب يسيرون فيها بين الناس في أبهة وعظمة وحولهم الأمراء قاصدين مكانًا بعيدًا من أماكن الصيد المعروفة آنذاك سواء كانت شمال مصر أو في الجنوب، وكانت تلك الرحلة بمثابة وسيلة للمتعة والتسلية فالجو المصاحب للصيد في الخلاء وداخل الخيام كان معاونًا على اقتناص أوقات اللهو، كما كان معاونًا على اقتناص الطير وصنوف الوحوش. ولعل أكبر دليل على انعكاس مظاهر الحضارة على الكتابات المختلفة ما وجدناه من مؤلفات عن الحيوان وحياته وأنواعه. كما فعل الدميرى فى كتابه " حياة الحيوان الكبرى" ونهاية الأرب " للنويرى الفصل الثالث، هذا إلى جانب كتب أخرى اُختصت فى علاج الحيوانات والطيور المختلفة، كل ذلك تأثراً من الأدب بالصيد ورحلاته.

" ونلحظ أن رسائل الكُتاب فى الصيد قد امتزجت بأشعارهم فيه، كما فعل الشهاب محمود، كما نجد أنَّ بعض الشعراء يقدِّمون فى رسالة نثرية لوصف البندق ويجعلون منها تمهيداً لأشعارهم التى تفيد – لاشك فى معرفة أنواع الطير التى كان يصيدها الأمراء [٤٢]. من ذلك الأبيات التى جمع فيها الشاعر أنواعاً مختلفاً من الطيور التى يصطادها الصيادون من السلاطين والأمراء وغيرهم آنذاك، يقول فيها:

فتارةً كنت أصيد النسرا وبعده العقاب يحكى الجمرا
والكى والكركى صدتُ جهرا وصدت غرنوفاً وعنزاً قهرا

وكنت بالأوز فى انشراح

وتـــارةً تمـــا كبـــدر الـــتمّ تتبعـــــه أنيـــــسة كـــــالنجم
ولغلـــغ أســـود مـــسك الهـــمّ وحبـــرح عـــن الرمـــاة محمـــى

والضوع مع سبيطر سيّاخ

وكم وكم قد صدتّ يوما مرزمـــاً أنزلته بالقوس مـــن جـــوّ الـــسما
جناحه يحكـــى طـــرازاً معلمـــاً على بيـــاض شـــية شـــبه الرمـــا

كأنه ليلٌ على صباحٌ [٤٣]

هذا وقد أحب المماليك رياضة الفروسية حُباً شديداً وكانوا يمارسونها فى مدارس خاصة، وقد أشار المؤرخون إلى أهمية الفروسية فى حياة سـلاطين المماليك حتى أنه " إذا كان السلطان غير فارس، فلا يعَرف الفـارس مـن غيره، فيختلّ به نظام عسكره، ويكون فساده أكثر من صلاحه"[٤٤].

وقد عبَّر الشعر عن هذه الرياضة ووصفوها، وكان من بديهة الـشاعر الحاضرة أن حوّل كبوة الفارس إلى مكرمة، من ذلك قول الشاعر:

"وقد زعموا أن الجواد كبـا بِـه وحاشاه من عيب يُـضاف إليـه
ولكن رأى سلطان عـزٍ وهيبـةٍ فقبّل وجه الأرض بين يديـه [٤٥]

ومن وسائل التسلية أيضًا المناقرة بين الديوك، والمناطحة بين الكبـاش وقد كانتا من وسائل العامة في التسلية واللهو. كما تعددت وسائل التـرويح عن النفس في مصر في عصر المماليك، ومنها خروج الناس إلى البـساتين والحدائق والجزر، مثل جزيرة الروضة، كما استغل المصريون جمال النيل وجعلوا الشواطئ متنزهات فائقة الجمال واعتنوا فيهـا بزراعـة الأشـجار المختلفة والورود المتنوعة، وكثيرًا ما كانوا يخرجون إلى تلـك المتنزهـات ويطلبون بعض القوارب يصطحبون فيها المغنيين والمغنيات ليتمتعوا بجـو النيل الجميل. من ذلك قول الشاعر شمس الدين بن الصائغ المصري:

كالنيل يحكي السما في انبساطه فلله ما أحكي وأصدقه حاكي
تسير به الأفلاك مشرقًا ومغربًا وحافاته أيضًا تُحَفُّ بأملاك (٤٦)

هذا وقد جمع ابن مكناس بعضاً من أماكن النزهة واصفاً إياها فقال:

باكرِ إلى جزيرة الفيل التى تختال فى أفنانها كالجنة
ولا يَملْ عن وجهها لوجهةٍ صف حُسْنها لمائها والخضرة

وقف بشاطيها ولا تعدى

واجلس من المنية جنب الشاطى من فرش الروض على بساط
فهى من التدبيج فى أمراط عروسة تختال بالأقراط

ومن لآلى نورها فى عقد

والتاج يعلو فوق هام الزهر والسبعة الوجوه ذات النشر
وكل برجٍ حولها كقصر فى كل برج ثمّ وجه بدر

يحلّ منها كل برج سعد (٤٧)

وقد وصفه أيدمر التركى فى أبيات توضح مدى حبّ الأتراك للنيل وصورة المراكب فيه، فقال:

انظر إلى النيل السعيد المقبل والماء فى انهاره كالسلسل
أضحى يريك الحسنَ بين مُورَّدٍ من لونه حيناً وبين مُصَندل
ويمرّ فى قيد الرياح مسلسلاً بأحسنه مَن مطلَقٍ ومسلسل
وترى زوارقه على أمواجه منسوبةً للناظرا المتأمِّل
مثْل العقارب فوق حبّات غدت يسعى بها فى عدوها ما يأتلى
وكأنما أسماكَه من فِضَّةٍ من جُمْدِ ذائب مائه من أوّل (٤٨)

وبعد هذا الاستعراض لمناحي الحضارة المتعددة في مصر فترة حكم المماليك يتضح لنا أن مظاهر الحضارة قد شملت وجهي الحياة الجاد والهازل مما يدل على مدى ما وصلت إليه مصر آنذاك من تقدم ومكانة جعلتها راسخة قوية صامدة، ومن ثم مستقرة، وقد ساعد هذا الاستقرار على نمو الحضارة في مصر، كما ساعد على استقرارها مدة تقارب المائة عام.

وقد شملت مظاهر الحضارة الجانب الجاد في النظام السياسي والدبلوماسي والإداري، كما شملت عناية فائقة بالعلم والعلماء. إلى جانب الاهتمام بالأشكال المادية للحضارة من صناعة وزراعة وتقدم تجاري أفرزته تلك العلاقات التجارية المتبادلة. كما تمثلت الحضارة أيضًا في ظاهرة الاهتمام بفن العمارة والمنشآت الفخمة وخاصة القصور والمدارس.

أما الجانب الترفيهى فتمثلت الحضارة فيه في العناية الفائقة بالمظاهر من ملبس ومسكن وأثاث، إلى جانب عنصر الإبهار في المواكب والبذخ في الأعياد والخروج للنزهة والاحتفال، وكثرة الولائم والأسمطة التي تنم عن تعدد أنواع الطعام وكثرتها في تلك الحقبة. كما اهتم سلاطين المماليك بالصيد والخروج في رحلات منظمة له، كذلك اهتموا بالألعاب الرياضية مثل الجري وركوب الخيل ولعب الكرة. والألعاب العقلية مثل الشطرنج وحل الألغاز والأقاصيص. وقد كانت نظرتهم العقلية المتقدمة تظهر حتى فى وصفهم لتلك الألعاب، فها هو ابن الصائغ يدعونا للتأمل فى حكمة الشطرنج قائلاً:

"تأمّل دولة الشطرنج كالدهر دولةً نهاراً وليلاً ثم يؤساً وأنعما
محرّكها باقٍ وتفنى جميعها وبعد الفنا تحيا وتبعث أعظما"(٤٩)

على أية حال كانت الفترة التي قضاها المماليك في مصر مصحوبة

بمظاهر حضارية كثيرة، ربما ساعد على ذلك أن مصر آنذاك كانت هي المعقل الأخير للحضارة، والملاذ المؤهَّل لاحتضان العلم والعلماء.

وكما تهتم الحضارة بتطور نظام الحكم بحيث يشمل كل الضمانات لتوفير العدل الداخلي والأمان الخارجي لبلد ما، فكذلك تهتم الحضارة بدراسة النشاط الثقافي بمختلف نواحيه، فمما لا شك فيه أن الفن مظهر هام من مظاهر الحضارة وعن طريقه يمكننا أن نقيس مقدار التقدم في المجتمعات. فالنشاط الثقافي يمثل إسهامًا معبّرًا عن الإبداع الإنساني الذي يهدف إلى دراسة شتى المناحي مما يسهم في عمران الأرض وتقدمها.

ولما كانت الحضارة الإسلامية في مصر المملوكية هي الصورة المشرقة والمنارة المضيئة لحضارات العالم في القرون الوسطى، فإن ذلك يعني أنها توّغلت في كل نواحي الفكر والفن والحياة. "أليس من كمال معرفة المرء بنفسه أن يدرك تمام الإدراك موقعه التاريخي من حضارته، فيتسع أفقه الجماعي، ويتسع بذلك نمو حياته النفسية ويزداد وعيه الروحي بانتمائه الثقافي المعين"(٥٠).

هذا وقد أجمعت المصادر على أن مصر في تلك الحقبة قد شهدت حركة فكرية مزدهرة، ونهضة علمية شاملة أنحاء البلاد، فأصبحت مصر كالدُّرة المضيئة وكانت القاهرة – آنذاك – هي قلبها المشع بالثقافة والعلماء والمتعلمين، واتسعت مجالات هذه النهضة حتى شملت العلوم والدين والآداب في شتى فروع المعرفة، ومن ثم لاحظنا تطورًا ثقافيا ملحوظًا أدى إلى ازدهار حضاري كبير. وكانت النكبات التى حلَّت ببغداد على أيدى التتار وفى الأندلس على أيدى الأسبان من أهم أسباب اللجوء إلى مصر بوصفها المعقل الأخير لحضارة العربية والإسلامية بكل مقوّماتها الثقافية؛ ومن ثمَّ

شكلت مصر حصناً يحمى كافة أشكال المعارف الأدبية والعلمية بعد أن انتصرت وصدَّت هجمات التتار فى موقعة عين جالوت، ولهذا وجدنا العلماء يفدون إليها وقد قامت مصر باحتضانهم محافظةً منها على الثقافة الإسلامية من الضياع.

ولعل فى هذا الكمّ الضخم من الموسوعات والكُتب المؤلَّفة وهذه الأسماء اللامعة فى شتى المجالات والفنون ملمح دينى أو بالأحرى دافع دينى من أجل التعويض عما ضاع من كتب وتراث فى البلاد الإسلامية المنكوبة ومحاولة لتأكيد الوجود العربى والإسلامى، ومن ثمَّ اجتهد العلماء فى تحصيل وتدوين أكبر قدر من العوم والفنون والتاريخ، وكل ماَ توصلوا إليَه فى معارف حضارية وثقافية وفكرية.

ومن أجمل الدعوات الشعرية إلى حُبِّ العلم ومكانة العلماء قول تقىّ الدين السُبكى مخاطباً ابنه تاج الدين يوصيه:

ابنى لا تُهمل نصيحتى التى أوصيك واسمع من مقالى ترشد
احفظ كتاب الله والسُّنن التى صحَّتْ وفقه الشافعىّ محمد
واعلم اصول الفقه علماً محكماً يهديك للبحث الصحيح الأبّد
وتعلَّم النحو الذى يدنى الفتى من كل فهم للقران مسدَّد
واقصد بعلمك وجه ربك خالصاً تظفر بسبل الصالحين وتهتد
وخذ العلوم بهمةٍ وتفطُّنٍ وقريحةٍ سمحاء ذات توقُّد
واستنبط المكنون من أسرارها وابحث عن المعنى الأسدِّ الأرشَدِ (٥١)

هذا وقد مُدح السلاطين بحبّهم للعلم، من ذلك قول ابن نباتة واصفاً السلطان الناصر حسن:

"مليك التقى والعلم والبأس والندى فمدحٌ على مدحٍ وشكرٌ على شُكْرِ"(٥٢)

وكان من نتيجة هذا الازدهار أن لمعت أسماء في شتى المجالات نذكرها حتى الآن ونقرأ إبداعاتها وإنتاجها، ونتعلم مما وصلوا إليه.

وقد توافرت لهذه النهضة الثقافية في مصر المملوكية عدة عوامل أدت إلى ازدهارها ومنها:

١-تشجيع الحكام المماليك:

أ- المشاركات في المجال الثقافي والفكري.

ب- المنح والعطايا للمؤلفين والمؤرخين.

جـ- حلقات العلم ومجالس الأدب.

٢-المنشآت التعليمية:

المساجد - المدارس - منشآت أخرى (المكاتب - الأسبلة - الخوانق - البيمارستات).

٣-وفود العلماء وطلاب العلم إلى مصر من شتى البلاد، وأسباب ذلك.

١) تشجيع الحكام:

أ- المشاركة في المجال الثقافي والفكري

ذكر لنا التاريخ في مصادره أن بعضًا من الحكام المماليك في مصر قد عُرف بالذوق الأدبي والإحساس الجمالي. وقد أيد ذلك ما قرأناه لبعض من أشعار، وما سمعناه عن مجالسهم التي يعقدونها لسماع الشعر أو المناقشة فيه.

ولكن الشيء اللافت للنظر أن ما وصلنا عن أخبار هؤلاء السلاطين النابغين في الدراسات الأدبية والمبدعين في شتى فنون الكتابة رغم كثرة

عددهم إلا إن ما وصلنا من إنتاجهم وجهودهم الإبداعية يعد النذر اليسير لا يتعدى مقتطفات قليلة من ذلك الإنتاج الضخم الذي تتحدث لنا عنه كتب التاريخ. ومن هؤلاء على سبيل المثال نذكر: الأمير ركن الدين بيبرس الفارقانى، وكذلك الأمير الكبير سيف الدين ظلوبك بن عبد الله المنصوري، ومنهم من تغنى بحب مصر مثلما فعل الأمير ناصر الدين أبو بكر بن عمر بن السلام، وغيرهم كثيرون سوف نعرض لنماذج من إنتاجهم الشعري.

اتفق بيبرس الدوادار وابن إياس في رأي واحد عن الأمير ركن الدين بيبرس الفارقاني وهو "أنه كان يزن الشعر بالطباع وينظم من ما لا تمجّه الأسماع، فمن ذلك قوله:

من لي بظبي غرير ... با للحظ يسبي الممالك
إذا تبدّى بليلٍ ... جلا سناه الحوالك
من حور رضوان أبهى ... لكنه بخل مالك[٥٣]

وقد ذكر ابن حجر العسقلاني خبرًا عن أحد هؤلاء المبدعين الدارسين من المماليك وهو الأمير عز الدين أزدمر الكاشف الشاعر الذي قال عنه إنه: "كان يحفظ مقامات الحريري، وكثيرًا من الشعر"[٥٤].

كما تناول ابن تغري بردى كثيرًا من أخبار المماليك في مجال الإبداع، ومنهم الأمير علاء الدين الطنبغا الجاولى، وذكر أنه أحد فحول الشعراء من الأتراك، لا أعلم أحدًا من أبناء جنسه في رتبته في النظم القريض، ومن شعره قوله:

أنهل مدامعها درًا وفي فمها ... درٌ وبينهما قرب وتمثال
لأن ذا جامد في الثغر منتظم ... وذاك منتثر في الخد سيّال

وقد اتصف بعض المماليك بالاجتهاد في تحصيل العلم حتى وصلوا فيه إلى درجة الأستاذية مثل أرغون نائب السلطان؛ فقد درس إلى أن برع في الفقه ووصل إلى درجة الإفتاء، وكذلك الأمير ركن الدين بيبرس صاحب المدرسة الدوادارية مؤلف "زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة" "والتحفة الملوكية في الدولة التركية" و"تفسير القرآن الكريم". وكذلك أبو المحاسن بن أتابك العساكر مؤلف "حوادث الدهور" و"المنهل الصافي" و"النجوم الزاهرة"، ولا ننسى ابن إياس صاحب "بدائع الزهور" و"نشق الأزهار" و"مرج الزهور". كما عرف الأشرف قايتباي بانشغاله بالعلم والمطالعة كما كانت له أذكار تُتلى في المساجد. وكذلك الأشرف قانصوه الغورى كان شديد الولع بعلوم العربية وآدابها. كما ذكر المقريزي عن حب الأتراك المماليك لمصر بيتين للأمير "ناصر الدين أبو بكر بن عمر بن عبد السلام" يقول فيها:

لعمرك ما مصرُ بمصرَ وإنما هي الجنة والدنيا لمن يتبصَّر
فأولادها الولدان من نسل آدم وروضها الفردوس والنيل كوثر(٥٥)

ب- المنح والعطايا للمؤلفين والمؤرخين.

حرص سلاطين المماليك منذ البداية على إضفاء صفة الشرعية على حكمهم، وفطنوا إلى أن الشعب المصري ميّال بفطرته إلى الإذعان للحاكم الأجنبي لو كان منطقه دينيًا بحتًا، وهكذا كان الحال مع المماليك إذ دخلوا في حياة المصريين بوصفهم حُماة الإسلام الذين أبعدوا عن ديارهم الصليبيين والمغول على حدٍ سواء.

كما أن المماليك لم يفتهم أن يعضدوا هذا الحكم بإرجاعهم الخلافة إلى العباسيين، وإعادة قيام سلطانها على البلاد كما كانت قبل عام ٦٥٨هـ؛ وإن كان الخليفة مجرد صورة لا رأي لها إلا أن وجوده أثقل من كفة وجود

المماليك في مصر فترة زمنية طويلة قاربت الأربعة قرون. وكما كانت الشرعية هي الدعامة الأساسية التي انطلق منها حكم المماليك لمصر، كذلك كانت المنح والعطايا والهبات هي الدعامة الثانية لتثبيت هذا الحكم، وقد شجع الحكام المماليك المبدعين في شتى فنون الكتابة لسائر العلوم والفنون، وكان ذلك لإعلاء شأن الفكر والثقافة في عهدهم في مصر، ومن ثم وجدنا هذا النتاج الضخم والموسوعات الهائلة، هذا وقد عرفنا أن هذا العصر كان عصر ترف وبذخ وثراء، ومن ثم سهل على السلاطين والأمراء والمماليك وحاشيتهم أن يغدقوا في عطاء الشعراء والكتاب والعلماء.. مما يدل على تبجيل سلاطين المماليك للعلماء وإجلالهم والتودد إليهم، كما يدل أيضاً على إدراكهم أن " نهضة الأمم ورفعتها تكون بقدر عنايتها بالعلم والعلماء، فهم مصدر عزتها وحضارتها"(٥٦).

ولما كانت مصر حاملة لواء الزعامتين الدينية والعلمية في تلك الفترة، وجدنا أكثره من العلماء والباحثين الذي أضفوا على هذا العصر طابع الازدهار والزهو في كافة ألوان الفنون. ولما لاقى العلماء والمؤلفون كل هذا الاهتمام والترحيب من قبل السلاطين المماليك وجدنا خزائن الكتب في عهدهم تمتلئ وتكتظ بميراث العقول، وكان بر السلاطين بالعربية أن رفعوا من شأن ديوان الإنشاء، وحافظوا على العربية بجعلها اللغة الرسمية فعاشت في كنفهم آمنة هادئة"(٥٧).

"ولقد أظهر لنا ابن نباتة هذا الشعور جليًا حينما أمر السلطان حسن بوضع ديوان شعره في خزانته، إذ يقول:

يا أيّها الناصر السلطان لاغمضت عينٌ لها عن سنى مرآك سلوان
كم فى ملوك الورى فضل ومعرفةً لديكَ قد زانه يمنٌ وإيمان

أمَّرت شعري يا خير الملوك علـــي أشعار قوم فلي أمر وديـــوان"[٥٨]

جـــ- حلقات العلم ومجالس الأدب

كثيرًا ما نقرأ في كتابات المؤرخين عن هذه المجالس التي كانت يقيمهـــا بعض سلاطين المماليك لإحياء المناقشات والمساجلات العملية، ومن ذلك ما قال ابن تغرى بردى عن السلطان: الأشرف شعبان الذي كان يعقد حلقـــات علمية بالقلعة لدراسة الحديث"[٥٩].

كما كان للسلطان قانصوه الغوري يعقد حلقات علمية أســـبوعية، وقـــد كانت مشهورة باسم المجالس[٦٠]. وهذه الأخبار تدل على اهتمام الـــسلاطين بالعلم والعلماء، والاختلاط بهم، ورفعهم لمكانة عالية من التبجيل والتعظـــيم مما أثرى الحياة الثقافية والفكرية في عهدهم. ومن أخبار حسام الدين لاجين أنه لمّا تسلطن استبدل بمجلس اللهو مجلس العلماء، وكان تقديره لأهل العلـــم عظيمًا، عرف لهم مكانتهم ورفعهم إلى منزلة، دخل عليه الشيخ فتح الـــدين محمد بن سيد الناس وهمَّ بتقبيل الأرض بين يديه فمنعه وقـــال أهـــل العلـــم منزهون عن هذا وأجلسه بجواره [٦١].

٢- المنشآت التعليمية.

المدارس- المـــساجد - الخانقـــاوات - الزوايـــا والـــربط - المكاتـــب - خزائن الكتب - الأسبلة.

خلال رحلة الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى تعددت المؤسسات واختلفت أغراضها، ومنها المؤسسات الدينية مثـــل المـــساجد والخانقـــاوات والزوايا، ومنها المؤسسات التعليمية مثل: المدارس والمكاتب ودار الحكمـــة، ودار العلم، وكثيرًا ما جمع المبنى الواحد أكثر من لون من ألـــوان النـــشاط

الحضاري؛ فالجامع كثيرًا ما كان يُدَرَّس فيه، وكذلك المدارس كانت تقام فيها الصلوات وخاصة صلاة الجمعة(٦٢).

ولا ننسى ما كان للأزهر من دور كبير فى موكب الحضارة المصرية الإسلامية فى العصر المملوكى، وخاصة بعد أن أعاد له الظاهر بيبرس هيبته ومكانته، وقد شكل الأزهر من العالم الاسلامى " واسطة العقد فهو يؤمه وضعاً، ويتوسّطه موضعاً. يقوم على ارض الحضارة والعلوم والفنون منذ القدم على مسار ألف عام، يقوم علامةً مضيئة بارزة فى تاريخ الإسلام، وفى تاريخ مصر على السواء، وفى تاريخ الأمة الإسلامية"(٦٣).

ومن ثم فقد شكل الأزهر واجهةً حضارية، وقد استقطب الطلاب فى سائر المجالات، وكان التدريس فيه شرفاً يتطلع إليه العلماء. ومما يدل على تعدد الجنسيات الوافدة على التعليم والتدريس فى الأزهر، إطلاق أسماء الجنسيات المجتمعة تحت كل رواق من أروقة الأزهر، على الرواق نفسه، فهناك رواق الشوام، ورواق المغاربة، ورواق اليمنية، ورواق البرنية (الوافدين من السنغال)، ورواق الجبرتية (الوافدين من الحبشة)، ورواق البرابرة (الوافدين من موريتانيا)، ورواق السليمانية (الوافدين من أفغانستان، ورواق الجاوة (الوافدين من اندونيسيا)(٦٤).

ومع اتساع المجال الحضاري وتطوره، امتدت الرغبة في طلب العلم من العلوم الدينية إلى العلوم الثقافية الدنيوية، فتجاوزت مرحلة الحفظ إلى مرحلة النقل والترجمة للتعرف على الثقافات المختلفة.

ولمّا كان للتدوين أهميته، ونال جُلّ العناية، تبعه فى ذلك الالتفات من الشعراء إلى أهمية أدوات الكتابة وخاصة القلم، ذلك أنه حظى بالذكر فى الشعر لأنه هو الذى يدوّن ويخلّد هذه الإنجازات الثقافية والحضارية الكبرى

نذكر على سبيل المثال إجلال ابن نباته لقلم الوزير زين الدين أحمد قائلاً.

لله أقـــلام الـــوزير فإنهـــا نظم العُلا ومفـاتح الإظـلام[٦٥]

وكذلك مدح شهاب الدين بن فضل الله العمرى بأنه من أرباب القلم فقال:

وذو القلم الـذى إن قـال أغنـى عـن اسـتماع قعقعـة الـسلاح

وقد كان حُب العلم وبناء المدارس من الأشياء المحبوبة التي أمتدح بهـا السلاطين، فهذا هو السراج الورّاق يمدح الظاهر بيبرس قائلاً:

"مليك له في العلم حـبٌ وأهلـه فللـه حـبٌ لـيس فيـه مـلام

فـشيدها للعلـم مدرسـة غـدا عـراق إليهـا شـبق وشـآم

ولا تذكرني يومًا نظاميـة بهـا فليس يضاهي هذا النظام نظام"[٦٦]

٣- وفود العلماء وطلاب العلم إلى مصر من شتى البلاد:

تمتعت مصر بمكانة مرموقة بين دول العالم الإسلامي في تلك الفتـرة، وكذلك تمتعت أجواء الثقافة فيها بتدفق وفود كثير من العلماء والأدباء الـذين أقبلوا إلى مصر حيث العيش الرغد والاحتفاء الكبير بالعلم.

وقد ساعد على هذا الإقبال الكثير من العلماء على الحضور إلى مصر، أنها كانت البلد الإسلامي الوحيد المستقر بين سائر البلاد الإسـلامية، إذ أن العراق والشام قد عمّهما الخراب نتيجة حروبهم مع التتار، وكذلك الأنـدلس كانت "على وشك الاحتضار"[٦٥]. وقد لقوا فى اقامتهم من عطف المماليك ما حبَّب اليهم البقاء، فانبسطت نفوسهم، واطمأنت قلوبهم، وطاب لهـم المقـام، وأخذوا يكتبون ويؤلفون، وينثرون وينظمون [٦٨].

وقد كان الباعث الأكبر لهؤلاء العلماء هو الباعث الديني وإحياء تـراث

الثقافة العربية الإسلامية بعد ما لاقت من أهوال على يد المغول ومن ثم توافد العلماء وانتشرت حركة التعليم والتأليف في مصر المملوكية. معنى هذا أن مصر كانت ملتقى العلماء وطلاب العلم، لأنها صارت الينبوع الفياض الذي ينهلون منه، ويصبّ في معين الثقافة والفنون.

ولهذا كانت هناك دعوة كبرى لتعلمِّ اللغات والترجمة، وقد انعكس ذلك الاتجاه فى الشعر كما فى قول: صفيّ الدين الحلّى:

بقدر لغات المرء يكثر نفعُه فتلك له عند المُلمَّات أعوان
تهافت على حفظ اللغات مجاهداً فكل لسانٍ فى الحقيقة إنسان(٦٩)

وبعد هذا الاستعراض لأهم وأبرز المظاهر الحضارية التى عبر عنها الشعراء وتأثروا بها، يتضح لنا مدى ما وصلت إليه مصر المملوكية من تحضرٍ ومدنية وثقافة شاملة لمجالات عدة سواء أكانت دينية أو علمية أو أدبية كما صور الشعراء كذلك بعضاً من أشكال التحضر فى عادات المماليك والمصريين على حدٍ سواء، سواء أكانت جادة أو هازلة.

ومن ثم نخلص إلى أن الحضارة المصرية فى العصر المملوكى توغلت فى كافة مناحى الحياة، وكان لها نصيبُ وافر على الصعيدين المادى والمعنوى ، وانعكس ذلك فى قصائد الشعراء.

هوامش البحث

١) مقدمة ابن خلدون، جـ٣، ص ٩٩١.
٢) المرجع السابق، ص ٤٥٣.
٣) رحلة ابن بطوطة، جـ١، ص ٣٦.
٤) الأدب فى موكب الحضارة الإسلامية، مصطفى الشكعة، المقدمة.
٥) النظم الإسلامية، تاج السر أحمد، ص ١٥.
٦) فلسفة الحضارة، ألبرت أشفيتسر، ترجمة: زكى نجيب محمود، ص ١٢٥.
٧) أضواء على الثقافة الإسلامية، أحمد فؤاد محمود، ص ١٩.
٨) الأدب فى العصر المملوكى، محمد زغلول سلاّم، جـ١، ص ٢٦، نقلاً عن مطالع البدور: للغزولى، جـ ١، ص ٢٤٨.
٩) أدب التاريخ عند العرب، عفت محمد الشرقاوى، ص ١٥.
١٠) مقدمة ابن خلدون، جـ٣، ص ٨٦١-٨٦٢.
١١) ديوان ابن نباتة، ص ١٦.
١٢) ديوان ابن نباتة، ص ٥٨١.
١٣) ديوان ابن نباتة، ص ٣١.
١٤) ديوان البهاء زهير، ص ١٤٩.
١٥) مصر فى العصور الوسطى، على إبراهيم حسن، ص ٥٤٠.
١٦) ديوان سيف الدين المشدّ، ص ١٦.
١٧) ديوان ابن نباتة، ص ص ٣١٥-٣١٦.
١٨) الضوء اللامع فى أهل القرن التاسع، السخاوى، جـ ٥، ص٣٢٩.

١٩) مصر فى العصور الوسطى، على إبراهيم حسن، ص ٥٤٤.
٢٠) البداية والنهاية، لابن كثير، جـ ١٤، ص ٢٨٧.
٢١) القاهرة، شحاته عيسى إبراهيم، ص ١٩٠.
٢٢) دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر، عبد المنعم ماجد، ص٦٤.
٢٣) الوافى بالوفيات، صلاح الدين الصفدى، جـ ٢، ص ٣٦٢.
٢٤) ديوان ابن نباتة، ص ٣٨٠.
٢٥) الخطط للمقريزى، جـ ٢، ص ٤٨٢.
٢٦) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، ابن تغرى بردى، جـ ١١، ص ٥٦.
٢٧) المُغرب فى حُلى المغرب لابن سعيد، جـ ٤، ص ١٤٩.
٢٨) تحفة أهل الفكاهة، محمد أفندى سعد، ص ٩٠.
٢٩) بدائع الزهور، ابن إياس، جـ٢، ص ٢٩٨.
٣٠) دراسات فى تاريخ المماليك البحرية، على إبراهيم حسن، ص ٢٤٢.
٣١) معالم الحضارة الإسلامية، مصطفى الشكعة، ص ٢٦٠.
٣٢) صبح الأعشى، القلقشندى، جـ ٣، ص ٣٦٧.
٣٣) رحلة ابن بطوطة، جـ١، ص ٧٠.
٣٤) حُسن المحاضرة، للسيوطى، جـ ٢، ص ص ٢٢٣-٢٣٥.
٣٥) عقد الحمان فى تاريخ أهل الزمان، جـ ٢، المجلد الرابع، ص ٥٦٦.
٣٦) حُسن المحاضرة، للسيوطى، جـ ٢، ص ٢٣٣.
٣٧) معالم القربة فى أحكام الحسبة، ص ١٥٧، وكذلك حُسن المحاضرة، للسيوطى، جـ ٢، ص ٢٢٨.
٣٨) تأهيل الغريب، للنواحى، ص ٢٠٢.
٣٩) المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، سعيد عبد الفتاح عاشور،ص ١٣١.
٤٠) تاريخ الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى، عبد المنعم ماجد، ص ١٤٦.
٤١) انظر فوزى محمد أمين: المجتمع المصرى فى دب العصر المملوكى الأول، نقلاً عن: منتخب الورّاق، ص ٢٧٥.
٤٢) وسائل الترفيه فى عصر سلاطين المماليك، لطفى أحمد نصار، ص ٢٢٥.
٤٣) صبح الأعشى، القلقشندى، جـ ١٤، ص ٢٨٧.

٤٤) السيف المهنَّد فى سيرة الملك المؤيد، للعينى، ص ٢٣٠.
٤٥) بدائع الزهور فى وقائع الدهور، ابن إياس، جـ٤، ص ٢٠٦.
٤٦) مطالع البدر، الشوكانى، جـ٢، ص ٧٦.
٤٧) حلية الكميت، النواجىّ، ص ٢٧١.
٤٨) حُسن المحاضرة، للسيوطى، جـ ٢، ص ٣٠٨
٤٩) خزانة الأدب، لابن حجة الحموى، ص ٣٩٦.
٥٠) أدب التاريخ عند العرب، عفت الشرقاوى، ص ١٣.
٥١) طبقات الشافعية، تاج الدين السبكى، جـ ١٠.
٥٢) ديوان ابن نباتة، ص ١٩٧.
٥٣) بدائع الزهور فى وقائع الدهور، ابن إياس، جـ١، ص ٣٥١.
٥٤) انظر الدرر الكامنة، ابن حجر، ص ٣٧٨.
٥٥) السلوك لمعرفة دول الملوك، المقريزى، جـ٢، ص ١٦٩.
٥٦) الثقافة الإسلامية والتحديات المعاصرة، إيمان عبد المؤمن سعد الدين، ص ٢٣٢.
٥٧) قصة الأدب فى مصر، محمد عبد المنعم خفاجى، جـ ٢، ص ١٢٦.
٥٨) قصة الأدب فى مصر، محمد عبد المنعم خفاجى، جـ ٢، ص ١٢٨.
٥٩) النجوم الزاهرة، ابن تغرى بردى، جـ ٨، ص ١٠٨، وحُسن المحاضرة ، للسيوطى، جـ ٣، ص ١٣٤.
٦٠) انظر فى مجالس الغورى، بدائع الزهور، ابن اياس، جـ٣، ص٥٩.
٦١) النجوم الزاهرة، ابن تغرى بردى، جـ ٨،ص ١٠٨.
٦٢) انظر الإسلام والحضارة، أنور الجندى، ص ١٥٣-١٥٥.
٦٣) "دور مصر فى الحضارة الإسلامية"، نعمات احمد فؤاد، فصل فى كتاب دراسات فى الحضارة الإسلامية، المجلد الثانى، ص ص ٤٤٤-٤٤٥، وهناك تفصيل لتاريخ الأزهر فى كتاب: الحياة الأدبية: لمحمد عبد المنعم خفاجى، ص ص ٣٣-٣٧.
٦٤) "أروقة الأزهر": عبد العزيز محمد، فصل فى كتاب دراسات فى الحضارة الإسلامية، جـ٢، ص ص ١٦-١٢.
٦٥) الخطط للمقريزى، جـ٤، ص ٢١٦.
٦٦) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى، شوقى ضيق، ط ٣، ص ٥٠٠، وقد ذكر

السيوطى أن بعض العلماء الذين هاجروا إلى مصر عن بلادهم: "هذا بلدُ ضيق عن علمى" انظر السيوطى، حسن المحاضرة، جـ٢، ص ٨٦.

٦٧) الحياة الأدبية فى مصر، محمد عبد المنعم خفاجى، ص ١٤.

٦٨) ديوان ابن نباتة، ص ٢٠٥.

٦٩) دراسات فى الحضارة الإسلامية، مقال بعنوان: الأدب العربى فى أربعة عشر قرناً، محمد عبد الغنى حسن، المجلد الثانى، ص ٣٥٢.

فهرس مصادر البحث ومراجعه

١) أدب التاريخ عند العرب، فكرة التاريخ نشأتها وتطورها، عفت الشرقاوى، القاهرة، ١٩٧٣م.

٢) الأدب فى العصر المملوكى، محمد زغلول سلاّم، ج٣، منشأة المعارف، ١٩٦٦م.

٣) الأدب فى موكب الحضارة الإسلامية، مصطفى الشكعة، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٦٨م.

٤) الإسلام والحضارة، أنور الجندى، دار الاعتصام، د.ت.

٥) البداية والنهاية، بن كثير، جـ ١٤، مكتبة المعارف، طـ ٥، بيروت، ١٩٨٣م.

٦) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، محمد بن على الشوكانى، ط السعادة، ١٣٤٨هـ.

٧) الثقافة الإسلامية والتحديات المعاصرة، إيمان عبد المؤمن سعد الدين، مكتبة الرشد، الرياض، ط٣، ٢٠٠٦م.

٨) الحياة الأدبية فى مصر: العصر المملوكى والأتمانى"، محمد عبد المنعم خفاجى، مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٨٤م.

٩) الخطط " المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار"، المقريزى، القاهرة، ١٢٧٠هـ.

١٠) الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة، ابن حجر العسقلانى، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٩٦٦م.

١١) السلوك لمعرفة دول الملوك، المقريزى، نشر مصطفى زيادة، جـ٢، القاهرة، ١٩٧٣م.

١٢) السيف المهنّد فى سيرة الملك المؤيد، للعينّى، تحقيق فهيم محمد شلتوت، ط دار الكاتب العربى، القاهرة، ١٩٦٧م.

١٣) الضوء اللامع فى أهل القرن التاسع، السخاوى، جـ ٥، القاهرة، ١٣٥٤ هـ.

١٤) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى، شوقى ضيق، ط ٣، بيروت، ١٩٥٦م.

١٥) القاهرة، شحاته عيسى إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥م.

١٦) المجتمع المصرى فى أدب العصر المملوكى الأول، فوزى محمد أمين، دار المعارف، ١٩٨٢م.

١٧) المُغرب فى حُلى المغرب لابن سعيد" القسم الخاص بمصر"، حققه زكى محمد حسن وشوقى ضيف وسيدة كاشف، مكتبة جامعة القاهرة، ١٩٥٣.

١٨) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، ابن تغرى بردى، جـ ٨، ١١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٠م.

١٩) الوافى بالوفيات، صلاح الدين الصفدى، جـ ٢، بيروت، ١٩٨٨.

٢٠) بدائع الزهور فى وقائع الدهور، ابن إياس، جـ١، ٢، ٤، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥م.

٢١) تاريخ الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى، عبد المنعم ماجد، مكتبة الأنجلو المصرية، ط ٥، ١٩٨٦م.

٢٢) تأهيل الغريب، شمس الدين النواحى، نسخة مصورة بمعهد المخطوطات، تحت رقم ٢٤٠٦.

٢٣) تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، رحلة بن بطوطة، ط ٢، دار صادر، بيروت، ١٩٩٢م.

٢٤) حُسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة، السيوطى، المجلد الثانى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م.

٢٥) حلية الكميت، شمس الدين النواجى، المطبعة الأميرية، ١٢٧٦هـ.

٢٦) خزانة الأدب وغاية الأرب، تقىّ الدين أبو بكر بن حجة الحموى، ط بولاق، ١٢٧٣ هـ.

٢٧) دراسات فى الحضارة الإسلامية، المجلد الثانى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥م.

٢٨) دراسات فى تاريخ المماليك البحرية، على إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٤٨م.

٢٩) دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر، عبد المنعم ماجد، جـ ٢، القاهرة، ١٩٦٧م.

٣٠) ديوان ابن نباتة المصرى، جمال الدين بن نباتة، دار إحياء التراث، بيروت.

٣١) ديوان سيف الدين المشدّ، ميكروفيلم بمكتبة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، تحت رقم: ١٥٥٣.
٣٢) صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء، القلقشندى، جـ ٣، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩١٩م.
٣٣) طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين السبكى، جـ ١٠، ط المطبعة الحسينية، ط ١، ١٣٢٤هـ.
٣٤) فلسفة الحضارة، ألبرت أشفتيسر، ترجمة: زكى نجيب محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٦٣م.
٣٥) قصة الأدب فى مصر، محمد عبد المنعم خفاجى، جـ ٢، دار الجبل، ١٩٩٢ م.
٣٦) مصر فى العصور الوسطى، على إبراهيم حسن، ط ٢، القاهرة، ١٩٤٩م.
٣٧) معالم الحضارة الإسلامية، مصطفى الشكعة، جـ٤، دار العلم للملايين، ١٩٨٢م.
٣٨) معالم القربة فى أحكام الحسبة، محمد بن محمد القرشى، ط كمبريدج، ١٩٣٧م.
٣٩) مقدمة ابن خلدون" العبر وديوان المبتدأ والخبر"، تحقيق على عبد الواحد وافى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨م.
٤٠) وسائل الترفيه فى عصر سلاطين المماليك، لطفى أحمد نصار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩م.